حرية الأبطال

بقلم محيي الدين محمد

إنه لغريب ان نتصوّر بطل قصة مـــا ، نحيا كل تلك الحياة ، لنعيشها نحن من داخل ذاته هو ! وهـــذه هي الحالة الفريدة التي نحقق فيها شعورنا العميق بالآخرية ، اي ان نكون آخرين بالنسبة لأنفسنا ، نعي وعي الآخرين ونعيش ملاحظاتهم ، ونجتر صمتهم ، ونتأمل مواقفهم . على انه ينبغي لنا ان نقر بانتفاء حريتنا في تلك المواقف ؛ فتصرفات البطل موضوعة مسبقاً وهي لا تحتمل تبديلاً ، أو وضعية ثانية ، غير التي يتلبسها ، ونحن قد نعجب او نرفض تصرفاً له معيبـــاً او مشدهاً ، فهو يجذبنا نحو مناطقه النفسية التي يجب الا نتعداها لفرط لصوقها بذاتيته ، أعني أنه ليس لنا ان نحاكـــم تصرفات البطل الحرة ..

ونحن ، كمتذوقين ، إما ان نراقب حياة البطل محايدين ، متفرجين ، واما ان نعيشها واعين مدركين . ففي الحالة الاولى نجد البطل انساناً مزيفاً يأتي تصرفات موضوعـة في صندوق ، وهو ليس صادقاً في كل هذه الايماءات والافعال ، ليس بشراً ؛ انمـــا هو دمية مصنوعة تؤرجحها أسلاك ما ..

وهو صامد ، بقلب حجري ، لا يعنى بأحاسيسنا ، ويندفع يأتي أعمالاً نحدسها ونكشفها قبل حدوثهـا .. والمؤلف من خلفه يتيح له امكانياته التي هي متصورة ومدركة ضمن ترتيبات لا تصدّق ..

البطل هنا لا يعاش ، وهو رقعة من الضياء مكشوفة ، لا عمق لهـــا ولا منعطفات ، وهو متى أقر في اول الرواية بصواب شيء ما ، فهو يصر بصوابه للأبد * ، لانـــه مصنوع .. آلي .. جامد .. ونحن نحس ازاءه بغرابة هذا التكوين الصخري ، فلا نبالي به ؛ انه طاقم ذكريات مرتبة .. ليس به ما بنا من الغموض والنية السيئة المختلطة بالصلاح ؛ وهو اما ان يكون صالحاً مئة بالمئة .. واما ان يكون شريراً مئة بالمئة .

ونحن إذ يصدمنا هذا الحدس : اكتشافنا الفجائي — من سلسلة التبريرات الموضوعة — لما سيفعله في هذا الموقف بالذات ، نحكم عليه تواً بانه ليس بشراً ، ليس ذاتاً بنفسها ، إنما هو حجة للمؤلف القابع تحته .. ذلك لأننا ، باللحظة الـــتي ندرك فيها سره الداخـــلي ، والذي لا يشترك واحـد منا ، أو ينبغي له ان يشترك معه ... يتأكد لنا أنـه بشر غير سويّ .. ومن هو هذا الانسان الذي تتضح أعماقه البعيدة وتطفو في مثل هذه الضحالة .?!

إننا نحتم أن تكون تصرفات البغيّ لائقة لتصرفـات كل بغي ، فليس لها مثلاً أن تحس النشوة في أحضان غرير ، ونحكم بالوقت ذاته على كل بغيّ أن تكون وفق هذه الملامـح ، والا سقط أثرنا الفني أسفل مراقي التأثير والايحاء .. ونرفض بالوقت نفسه أن يكون لكل بغيّ الحق في ان تظهر ذاتها متفردة .. حرة وان اشتركت في الطابع القشري للبغايا .

« فمرسو [1] » اللامبالي ، والذي يتقبّل كل الفواجع بروحه الهادئة ، والذي لا يهمه أن تموت والدته فيذهب مع عشيقته في اليوم التـــالي لمشاهدة (فرناندل) : هذا الانسان يجب ان يظل لا مبالياً .. هكذا حتى بعد تلقّيه الحكم بالموت . !يجب أن يظل لامبالياً — في عرف الرواية — حتى يموت .. وكان متصوراً انه سيبسم من كل قلبه لهذا الحكم ، فليـــس يعنيه ان يموت كل البشر ، اذ أن كل المصائر سواء .. كنا متأكدين حتى النهاية من هذا الأمر الذي سيقره حتماً . !! ولكنه يفاجئنا ، بل ويقلب كل ما رتبناه له من اقوال وتصرفات .. بطلبه الملح بالاستئناف .. ! ذلـــك الذي عرفناه لا مبالياً .. ينقلب متمسكا بالحياة في مسكنة .!! ويتقرر الامر .. أليس هو حراً .?! ثم هو يعود ليطالب بأن يشنق امام جمع من الناس غفير ... ونعجب نحن أمام هـذه النفسية المتناقضة .. والتي حكم مؤلفها عليه بحرية الاختيار . و (مرسو) حر بكل تأكيد . حرّ في أن يصدمنا بطلبه الذليل كي يعيش مرة اخرى ، وحر ان يطالب بأقسى انواع الموت وهو يؤكد في براعة تامة ما كان خليقاً ان يظـــل مظلماً الى الابد .. !

* لا يستطيع المؤلف الا ان يختار بطله في خط اخلاقي واحـــد حتى النهاية ..

١ بطل رواية (الغريب) لألبير كامو .

فليس البطل الموسوم باللامبالاة ، او الشجاعة ، او الجنون .. متلبساً تلك الحالة من جماع سلوكه .. اذ يتراجع ويقدر .. ويخاف .. ويشك .. كيما يظل للنهاية .. حياً . وحراً ..

وبالتالي كيما يبتعد عن تقريراتنا نحن الذاتية ، وعن كشفنا لخططه باستمرار . !

اننا لا نفاجأ بأفعال البطل الذاتية ، وأحكامه الخاصة ؛ ذلك لان عالمه عالم عام (البطل غير الحرّ) نشترك جميعاً في خصائصه ومقوماته ، فصانع الجبن لا يفعل الا ما يفعله صانع الجبن : ما من شيء خلاف ذلك ، والجندي الهارب يجب ان يتصرف تماماً كجندي هارب .. وتنتفي احكام الذاتية التي تفرق بين جندي هارب وآخر مثله .. ! كما لو كنا نقرأ قصة للمرة الثانية .. فنحن نعرف ما سيفعله البطل مسبقاً .. واحداثه التي تقع في مستقبله ، اضحت ماضياً بالنسبة لنا .. فهو مكشوف تماماً .

ومهما تكلف المؤلف اظهار الملامح[1] الخارجية لبطله ، محاولاً ان يغطي امكان اكتشافاتنا لاسراره وليعطيها الطابع الراجح والمؤيد لملامحه الخارجية ؛ فنحن يتأكد لنا ان مثل هذه الترتيبات الغشيمة لا تخفي الا عدم الدقة .. اننا لا نفاجأ بما تقرره تلك الذات لنفسها ، لانها ليست خارجة عنا فلا نشعر بغموض الآخرية تجاهها . ولا تتلبسنا حالتها .. لاننا نكشفها باستمرار .. ونعطل مواهبها دوماً ..

والمؤلف بدل ان يراقب بطله في اندفاعه العادي في تيار الحياة ، يمدّ اصابعه الفوسفورية .. كما تتبعه جيوش القراء مكتشفة خدعه والاعيبه ..

حتى اذا ما قرر البطل (من سياق الرواية) : «لن اسافر على هذه الطائرة ! » مطّ القارىء شفتيه : لقد كان هذا متوقعاً منذ البداية .. لقد كشفت هروبك .. ألم نعتد في تصرفاتك – منذ أول الرواية – انك لا تحتمل مسئولية ما ؟ وبذلك سُطّر لك قضاؤك ، وألقي بك في الضوء العنيف . ! !

نحن لا نعيش حياة مكشوفة ، فلو لم تكن حياتنا ، بكل هذا الغموض والضبابية ، والسُتر .. لما استطعنا البقاء ابداً . تصوروا لو كانت حياتنا المستقبلة مكشوفة مرسومة امامنا . بكل مداها وما نسميه تلقائيتها ، اكنا نتحمل انتظار لقاء حبيبتنا في الغد ، او بعد اسبوعين ؟ اكنا نستطيع البقاء لحظة ونحن نعلم – علم اليقين – اننا مائتون بعد لحظات ؟ !

ان القيمة المثلى للحياة تكمن في هذا القتام المستقبلي ، وفي اسراره ، ومجهوله .. وليست هناك متعة تقابل ان نفاجأ بما يقلب خططنا رأساً على عقب ، ومتعتنا تأتي من اننا درجنا على النظر بعداء الى الكون الخارجي ، فنحن لا نتوقع الا الشر منه ؛ اذ لا يبالي بنا او برغباتنا في الغالب .. يتركنا عرايا .. حائرين .. بلا آمال .. وتتلبسنا العزة ، أو الشعور الكامل بالمسؤولية ، فنقابل العناد بمثله ، ونتقبّل المفاجئات بكل بطولة وحزم او بجبن وخوف .. ولو ادرك (الدون كيشوت) – مسبقاً – انه انما سيموت قانطاً .. فاشلاً .. لما تخطى كوخه مقدار بوصة .. ولقنع باللمعة المحتضرة من درعه المنهرىء ، ولادرك – بحق – ان العالم بكل فرسانه وجراراته انما يحارب في حقيقته طواحين الهواء .. ولما كان هناك داع لامتطاء صهوة تلك (الروزيتانتي) الحبيثة ، واصطحاب ذلك الغبي السمين (سانكوبانزا) ثم التطواف حول اسبانيا لادراك الحقيقة . ! وكان لا بد ، لادراكها ، من كل تلك المصائب التي لاحقته . فأضنته .. ثم قتلته . !

وبعبارة اخرى : لو تسنّى لنا معرفة أننا سنموت في اليوم التالي لنيلنا اجازة الدكتوراه فلن نتقدم خطوة اخرى في سبيل اجازتنا ، وسنقنع بمجرد الاستلقاء في ظل الجميز الرطب ثم التحديق الفارغ في ما تكشفه لنا اوراق الشجرة من بقايا السماء . ! !

[1] ارهاص تابع لنظرة (لومبروزو) القائلة باشتراك المجرمين في سمات خاصة ، وملامح خاصة .. تؤكد نفسياتهم المريضة ..

صدر حديثاً

عشر قصص عالمية

من اروع النتاج الغربي المعاصر

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

دار العلم للملايين

اننا نعيش لاننا لا ندري ما الذي نفعله غير أن نعيش وقيمة الحياة في اننا نعيشها جزئية .. جزئية .. مفاجأة .. مفاجأة .. !! فأبطال مكشوفة اقدارهم انما يؤكدون زيف بواطنهم .. ولامعقوليتهم ..

اما البطل الحق فهو ذلك الذي يتصرف بحرية في قدره الخاص ، يؤكد داخليته البشرية : يتكلم بحمق ، ثم يتراجع ويحكم بنزقه .. ثم يندفع للحمق ثانياً . مؤكداً حريته .. ولصوق حالته بالطابع البشري على الصعيد العام ..

فلا تكون حلولنا متوافقة لو وقعنا في اشكال واحد .. انما تبرز الذاتية بجلاء اثناء تقريراتنا الفردية ، ونزوعنا لتوكيد ذواتنا في كل ما نرتبه ونبوّ به ..

وشعورنا بالآخرية نتيجة حتمية لشعورنا الدافق بذاتية البطل الذي نعيش حياته ، فهو ذات كاملة ، واعية .. ولها تصرف دقيق ملائم لها وحدها .. وتقاريره التي يضمنها أحكامه لا نراجعها نحن ، لنقر بصوابها او لنرفضها ، فهي تقريرات لا تتأرجح بالنسبة لنا بين الصواب والخطأ .. بل تقبل فوراً لانها انبثاق عن وجود مؤكد .. وجود غير زائف ...

الى الذين يدعون ان لا ادب وجداني في الاتحاد السوفياتي

بالحب

رواية سوفياتية

دبجتها يراعة الكاتبة السوفياتية الكبيرة :

فاندا فاسيليفسكا

في صراع عنيف بين الحب والواجب ، ترسم لنا الرواية لوحات رائعة عن العواطف المتضادة التي تختلج في قلب امرأة صبية جميلة ، جعلت الحرب من زوجها الحبيب كائناً عاجزاً مشوها .

نقلها الى العربية

احمد غربية

الثمن ١٥٠ ق . ل . دار الفكر الجديد — بيروت

اطلبوها من جميع المكتبات .

اننا لا نستطيع ان نتصور ما سيأتي به في اللحظة التالية ، فهو وجود حرّ ، له من حرية التقرير الذاتي ما لنا ، وله من حق الانسحاب او التوغل في العراك ما لنا .. فلا يمكننا ان نحكم ، حتى ولا من خلال وضعيته نفسها — بما يمكن له ان يفعل ..

والناقد الذي يصر مؤكداً ان هذا التصرف غريب بالنسبة له (كسائق عربة) مثلاً ، فهو غير واقعي .. بالتالي ، انما هو ناقد يتجنى على الحرية المعطاة للبطل في ان يقرر ويفعل ما يشاء ...

ونحن — كمتذوقين — لسنا احراراً في هذا العالم الروائي الغريب الذي نجول فيه ، اذ تقتنصنا على الدوام أفكار ليست لنا ، وأعمال لا نستطيع القيام بها * .. ونحن ننزع ، باللحظة التي نصير فيها ضمن نفسية البطل ، الى ان ننحي ذواتنا لحظات كيما نلاحظها من داخل وعي البطل ، ونشاهد جلياً كيف تكون نزوعاتنا بالموقف نفسه .. فنلاحظ اعمالنا كآخرين .. محققين فرط ذاتية البطل ..

ولو لم يكن للبطل ذلك السر الخاص ، لما استطعنا تلقي تلك المتعة العذبة ، التي تمنحها لنا هذه الشخوص الحيّة في اعماقنا بحريتها ومنطقها ورغائبها التي تختلف اختلافاً كلياً عن منطقنا ورغباتنا .. ولكننا لا نسقطها لانها تعارض ما نحن عليه ، بل نحييها ، ونوافق على ان تعيش حياتها بلا تدخل منا او اشارات من المؤلف : ويبقر البطل امعاء صديقه لانه اكتشف وزره ، او يترك الامر .. ثم يهرب للتلال .. ، ولا نعجب نحن لهذا الفار الهروبي .. او نتخذ أهبتنا للحكم القاطع : هذا موقف مستحيل .. او هذا اجرام لا يصدق .. ! ! فلسنا قضاة .. بل نحن متذوقون نعيش تجارب الآخرين ...

ولا يعيش الجبان حقيقة الجبن الى الابد .. انه يكافح كيما يخلق مواقفه ، يعيشها ، ويجددها .. وهي لا تأسره ، ولا تسجنه .. بل يكيفها حسب وضعياته المتقلبة .. وليس لنا ان نتساءل عن مقدار الصدق في ان يتلمس الجبان سيفه حين يصدم باهانة .. ! ذلك لانه حرّ يكيف وضعياته ويغامر دوماً بها ..

وليس للمؤلف ان يبرر هذا السلوك المفاجيء والمخالف

* ليس معنى هذا انها افعال (هرقلية) .. فهي إنسانية دوماً ، ولكنها تختلف عن كل انسان .. وقد تكون بلا مبررات ، او غير منطقية .. ولكن تلقائيتها التي تباشر بها تعمل لتأكيد إنسانيتها وانتمائها للفرد الحر ...

ميلاد انسان

كان هذا منذ عام !!
منذ عام كان ميلاد نهار
منذ عام كان ميلاد جديد
لحياتي !!
عندما ادركتُ اني
لي في الارض ظلال
وعلى السفح رفاق
ويدٌ تسند ظهري
عندما ادركتُ اني
لست وحدي في الطريق

*

ليلة مرّت بعمري منذ عام
زحفت فيها اعاصير الظلام
وتبدت لي السماء
كقلوب التافهين
وتراءت لي النجوم
كالعيون الميته
كنتُ وحدي في الطريق
راجعاً احمل نفسي !!
اقصد البيت العتيق
بيت امي وابي
وابتسامات الحياه
اخوتي
وتراءت لي الدروب المظلمه
لعنة الماضي السحيق
وبقلبي كان إعصار يدوّي
وصراخ وعويل
وزوايا مبهمه !!
وارتعاشات ظلال
ودروب واجمه
وسؤال ينطوي إثر سؤال
لِمَ نحيا ضائعين ؟؟
ما الذي يطفيء في عيني البريق ؟؟
ما الذي يخنق فينا الامنيات ؟؟
ما الذي يستلّ اضواء النهار
من زوايا حارتي
من لامي وأبي ؟؟
وابتسامات الحياه
إخوتي
إن رماني التافهون
للطريق
أنا وحدي كيف أجتاز الطريق
وتبدت لي الدروب المظلمه
لعنة الماضي السحيق
والعيون الواجمه
وترامى من بعيد
صوت عصفور صغير
إنها اختي الصغيره
لم تزل تروي حكايه
لاخيها
قبلما تذهب في نوم عميق
وتراءى طيف أمي
هاتفاً بي لست وحدك
لك في الارض مكان
ورفاق وظلال
لن تنير الدرب وحدك
عندها آمنت أني
لست وحدي في الطريق
وسرى الدفء بقلبي
إنني احيا سعيداً
في قلوب الآخرين
واحتواني منزلي !!

القاهرة **سعد دعبيس**

لنفسية البطل الجبان ، وهو لو برره ، انما يعاق الشك في وعينا ، من ان صواب هذا السلوك ليس راجعاً لتلقائية الفعل المباشر .. بقدر ما هي راجعة لحدس المؤلف الفائق .. بامكان ترجيح المتذوق لزيف هذه النفسية .. فهو يعمد — بعد ان حرق سفنه — لتغطية جناحيه ..

ونحن نفكر حينئذ : لو كنا في ذلك الموقف بالذات .. ما الذي كنا نفعله . ؟!

خلاف ذلك بالطبع . ! وهنا يتضح مبلغ ما للحكم الذاتي من طابع خاص يختلف باختلاف طبيعة الافراد ، وحريتهم ويتقرر في داخل البطل ، بلا اشارة من ارادة المؤلف او توقع منا لما سيحدث ، اذ يحتم هذا التوقع سطحية هذه النفس الهلالية التي ندري سلوكها واحكامها ومقرراتها ..

ان البطل حرّ يقرر لنفسه ما يشاء ازاء الخطوب والمواقف وهو لا يرجع الا لذاته ، ليحكم من داخلها على مقدار التلقائية التي يواجه بها العالم والآخرين .

القاهرة **محي الدين محمد**